مَعالِمُ المُجْتَمَعِ الإِسْلامِيِّ في أُمِّ الكِتَابِ

السيد منذر الحكيم

فحوى البحث

أم الكتاب -كما أجمع المفسرون- هي سورة الحمد المباركة وقد ذكرها- سبحانه- في قوله: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴾ [سورة الزخرف: ٤].

وقد ابرز السيد الباحث في هذه السورة الكريمة من مضامين تبين ما يجب ان يكون عليه المجتمع المسلم من حمد الله وشكره وإفراده بالعبادة والاستعانة وطلب الهداية في بحث بياني اعتمد فهم الباحث وتقديره واستقصاءه.

تمهيد:

إن مفاتيح كنوز القرآن الكريم قد جمعت في فاتحة القرآن الحكيم وام الكتاب المجيد وقدمت صورة كلية رائعة لمن يروم المعرفة من خلال هذا الكتاب الالهي السامي، و رسمت خطوطاً عريضة لجميع مفاهيم القرآن العظيم، وهي تشتمل على روح الكتاب وأسس تعاليمه وتتصف بالاعجاز والوضوح والجمال.

إنها «ام الكتاب» ومفتاحه وأساسه. فلكل ذي اختصاص أن يتوجه اليها ناشداً ضالته، ليحصل منها على ما يروي ظمأه.

إن «فاتحة الكتاب» هي كلام رب العالمين وأدبه الذي أراد منه تأديب عباده عليه، و أن ايجاب قراءتها على كل مسلم عشر مرات على الاقل في كل يوم، و لكل فريضة مرتين على الاقل، يشير الى ضرورة التأكيد على مفاهيمها لتغرس في روح المسلم اصولها، وضرورة تجسيدها عملياً في واقع الحياة، والتحلي بجمال مافيها من قيم مثلى. وربما لهذا قد وجبت تلاوتها في السفر والحضر، والحرب والسلم، على الرجال والنساء، والشباب والكهول، فرادى وجماعة، جهراً وإخفاتاً، لزوماً للتأدب بالادب الرباني والاستهداء بهديه السامي.

ان التصريح بطلب واحد فقط وهو طلب الهداية من الله الهادي سبحانه وتعالى و بصيغة الجمع «اهدنا» وباسلوب الدعاء والتضرع يعني ان هذهِ السورة التي صرحت بأنه رب العالمين جميعا انها تخاطب الانسانية بأجمعها، وترشدها لتتجه الى مصدر الهداية التي هي احوج مايكون اليها الانسان في كل جوانب الحياة وكل مراحلها، فطلاب الهداية من العالمين الى الصراط المستقيم يعني طلب معرفة هذا الصراط، وطلب التوفيق والمعونة للسير والثبات عليه، لانها أهم مايحتاجه الانسان في حياة تتشعب فيها السبل، وتتعدد الطرق، ويحيط الجهل بكل جانب، وتسيطر قوى الضلال على كل سرب، وتهيمن عوامل الهدم على عالم يموج بركام الجاهلية، التي تمسخ الانسان الذي فُطر على العروج الى سماء الفضيلة، وتكيد عناصر الشر له بإغرائه وإلباس الباطل

لباس الحق، و التمويه على الحق بلباس الباطل.

إن هـذهِ الـقـوى المسوخة تجعل الانسان في ظرف حالك و في مأزق شديد. فما أحوجه الى التطلع الى النور والجمال والكمال والاستعانة بمصدر الخير والهدى والقدرة والغنى. وما احوجنا لمعرفة الحق والعمل به والثبات عليه.

وتتكفل سورة الفاتحـــة الأم لهذا الكتاب العظيم بالإيضاح لهـذا الامر، وتحـدد للانسان المسلم المعالم الواضحة الابعاد للمجتمع الذي ينبغي له ان يصنعهُ ويعيش فيه.

معالم المجتمع المسلم لله في فاتحة الكتاب:

ويمكن تلخيص أهم معالم المجتمع المسلم في سورة الفاتحة المباركة في النقاط التالية:

١. الرؤية التوحيدية الناصعة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

٢. العبـــادة المستمرة و هي المعبرة عن الخضوع المطلق للقانون الالهي في الحياة: (اياك نعبد).

٣. الاعتزاز بمصدر القوة والقـــــدرة والاستغنـــاء بالله العزيز عن غيره و الاستعانة المطلقة بالله والاعتزاز بها: (واياك نستعين).

٤. التوجيه السليم للعاطفـــة والحياة الهـادفـة مـن خـلال الـدعـاء الهـادي: (اهدنا الصراط المستقيم).

٥. القدوة الصالحة للفـــرد والاسرة والمجتمع الصالـــح: (صراط الذين انعمت عليهم).

٦. معرفة الآفـــات والاعداء الحقيقيين والحذر منهم وتجنبهم: (غير المغضوب عليهم ولا الضالّين).

١. **الرؤية التوحيديـة الناصعة (وسلامة العقيدة):**

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝١ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٣ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

١. لقد نص القرآن الكريم على أنه «ذكر للعالمين» و «ذكرى للبشر» فهو كتاب الله للبشرية جمعاء (للفرد والمجتمع جميعا).

٢. ان تكلم الـفـرد مـع ربـه الـرحمن

الرحيم ومخاطبته له بضمير الجمع تأكيدٌ -لافت للنظر -على الطابع الاجتماعي لمحتوى آيات سورة الحمد (نعبدُ، نستعين، اهدنا).

٣. إن الرؤية الكونية للانسان الفرد وللامة والمجتمع تتجسد في كل مفردات السلوك اليومي للانسان.

وقد تجسدت الرؤية التوحيدية في كل مقاطع هذهِ السورة:

من ابتداء القراءة، وهي سلوك يومي مستمر، بالله وحده دون غيره.

و من تخصيص كل الحمد والثناء به سبحانه.

ومصدريته وربوبيته تعالى لكل عوالم الوجود.

ونشوء كل انواع الرحمة من رحمته المطلقة.

ومالكيته لكل شيء وانتهاء مصير كل كائن وموجود اليه تعالى وهيمنته المطلقة عليه بدءاً وانتهاءً.

وحصر استحقاق المعبودية به تعالى وتخصيص العبادة الدائمة من العباد له تعالى.

وحصر القدرة المطلقة فيه وحصر الاستعانة الحقيقية به.

وتخصيصه بالدعاء وطلب الهداية منه تعالى دون سواه.

وتخصيصه بكونه المنعم بالنِعم كلها على المنعَم عليهم.

وأنه هو الحق ومنه الهدى، وغيره الباطل وطريقه الضلال.

وفي النهاية إن الغضب الذي ينبغي اتقاؤه والفرار منه إنما هو غضبه دون من سواه.

إن ابتداء التلاوة -وهي مفردة من مفردات السلوك البشري -باسم الله الرحمن الرحيم، نموذج من سلوك انساني مرضيّ لله سبحانه، بل هو أدب من آداب العبودية لله سبحانه، يلزم الاقتداء به في كل سلوك اختياري بشري فرديّ أو اجتماعي، وليس هذا للمسلم شعاراً كاشفاً عن رؤيته التوحيدية فحسب، بل هو تمثيل لقيمة عُليا من قيم الحياة البشرية، وهي ضرورة التحرك في كل عمل إرادي اختياري عن داع إلهي لا يشوبه أدنى شك أو شرك، لان كل انسان لابدّ له من مَثل

أعلى يختاره ويتحرك على اساسه في كل خطوة من خطى حياته بأمل الوصول إليه. فإن كان هذا المثل الاعلى -أعلى بحق -كان سلوك الانسان سُلَماً يرتقي به الى ذلك المثل الاعلى وإن لم يكن هذا المثل مثلاً أعلى بحق بل توهم الانسان أنه كذلك كانت رؤيته سراباً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

ومن هنا نفهم سر قوله ﷺ: «كل أمر ذي بال لم يُبدأ باسم الله فهو أبتر». ومن هنا يُلقى الضوء على مثل قوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا ﴾ [سورة النور: ٣٩]، وقوله: ﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَرَمَادٍ ٱشۡتَدَّتۡ بِهِ ٱلرِّيحُ فِي يَوۡمٍ عَاصِفٖ ﴾ [سورة ابراهيم: ١٨].

فإن صدور كل عمل اختياري عن نية هو أمر لابد منه، وهذه النية هي كينونة هذا العمل وهويته، وهي روحهُ وحقيقته، كما ورد عن النبي ﷺ: «انما الاعمال بالنيات وانما لكل امرئ مانوى».

ولا يحصل الانسان على ثمرة عمله هذه إلاّ بمقدار ماينطوي عليه هذا العمل من سلامة النية وخلوص القصد، أي بمقدار مايحتوي عليه من داع مقَرِب نحو ذلك الهدف الاعلى للانسان. قال تعالى: ﴿ وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ ﴾ [سورة الاسراء: ١٩]، فصدور كل عمل عن داع أمثل يرفع هذا العمل الى مستوى الاثمار، فيكون حصاد هذا الزرع ثماراً صالحة أيضاً متنامية كما قال تعالى: ﴿ مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَا ﴾ [سورة الانعام: ١٦٠]، ولذلك يلزم اقتران هذا الداعي بالعمل طيلة مدة العمل، وكلما ازداد التوجه إليه ازداد تأثيراً واشتد نوراً وتوهجاً. وإقران العمل بـ «اسم الله تعالى» إن هو إلاّ تصعيد للحالة الشعورية اللازمة لاثراء العمل، وتصعيد لدرجة إنتاجه واثماره. فقد ورد عنه ﷺ: «إنما يكتب للعبد من صلاته ماعقل منها»[1].

ثم إن استشعار المسلم أنَ مَثله الأعلى في الحياة مستجمع لجميع صفات الكمال والجمال وهو الله سبحانه، ثم التنصيص

(١) بحار الانوار ٨٤: ٢٤٩.

على اتصافه بشمول الرحمة ودوامها «الرحمن الرحيم» قد يعني أن نظرة الفرد المسلم والمجتمع المسلم الى الحياة بل الوجود كله نظرة متفائلة بالخير والرحمة. إنهُ الأمل الذي يُسرع بعجلة حياة الانسان للسير به الى قمة الكمال، والرجاء الذي يُتوّج معركة الحياة الانسانية بالنصر والفلاح.

إن الرؤية التوحيدية رؤية شاملة، فلا يشذ سلوك للانسان المؤمن بالله عن صدورهِ من هذهِ الرؤية الناصعة، كما لا يشذ شيء في الوجود عن فاعليته سبحانه وتعالى، وحضوره والقيمومة عليه كما قال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾(٢) فالحمدُ والثناء سلوك اختياري يصدر عن الانسان، وينشأ من توجهه لجمال أو كمال يرى استحقاقه للتقدير والتثمين، فيلهَجُ بذكره مدحاً وثناءً.

وإذا تعمق الانسان في كل جميل أو ذي كمال، وَجَدهُ كمالاً مستعاراً وجمالاً عارضاً له وناشئا من مصدر الكمال والجمال، فإذا أراد الثناء عليه كان حرياً به أن يثني على مصدر الجمال والكمال كله.

فالمسلم هو الذي عرف الحق فآمن به، وعرف الكمال المطلق الذي لا يتعدى عنه الى غيره، وإنما يتجلى في كل شيء، فكل جمال ينشأ منه ويعود إليه، وكل ثناء في الوجود إنما يستحقهُ هو، وفي الحقيقة يختص به.

إن هذهِ الرؤية وهذهِ المعرفة تفيدان الانسان نظرة جديدة الى ظاهر هذهِ الحياة وباطنها، فهو لا ينبهر بجمال غير جماله سبحانه وتعالى، ولا يستغرق في وصف شيء والثناء عليه إلاّ إذا كان وصفه وصفاً له تعالى، وثناءً عليه وحمداً له.

وهكذا ترفرفُ ظلال الرؤية التوحيدية على كل ساحة من ساحات وجود الانسان، وعلى كل جانب من جوانب حياته، وعلى كل رؤية ونظرة وسلوك.

وهذهِ إحدى دلالات هذا النص المعجز: (الحمد لله رب العالمين) اي كل حمد في الوجود يختص بالله سبحانه، إنها الربوبية المطلقة لكل عوالم الوجود،

(٢) [سورة البقرة: ٢٥٥] [سورة آل عمران: ٢].

فعوالم العقلاء -بالذات -كلّها خاضعة لربوبيتهِ التكوينية والتشريعيـــــة سواء بسواء. والربوبية تستبطن الانشاء والملكية والرعاية والهيمنة الدائمـــة للمربوب، فالربوبية تستدعي خضوع المربوب للرب خضوعاً ناشئاً عن الافتقار والتعلق بالرب المنشئ، والمالك الذي يرعى مملوكه ويربيه ويتدرج به في مراحل تكامله في الوجود. فالمجتمع البشري مدين لربهِ شاء أم أبى، والمجتمع المسلم يدرك هذهِ الحقيقة بكل عمق ويؤمن بها أشد الإيمان.

ان وحدة المنشأ هذه هي أهم عوامل وحدة المجتمع البشري، على الرغم من كل الفوارق التي تتميز بها الامم والشعوب كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٣].

والربوبية التي تكـــون على اساس الانشاء والمالكيـــــة تستلـزم السيطرة، والسيطرة قد تكون مقرونـة بالتجبر، أو تكون مفعمة باللطف والرحمـــة. وبهذا المنظار يمكن ملاحظة القيـــم والاهداف والموازنة بينهـا وبين الوسائل، وعوامل الهدم، وعوامل البقاء، وعوامل التقدم نحو الاهـداف العليا، فتستدعي الدفاع والجهـاد واقـامـة الحـدود وحمـل السيف ما دام السيف وسيلة لاحقاق الحق بعد انسداد كل السبل السلمية والارشادية. قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [سورة الحديد: ٢٥]. فالمجتمع المسلم تبع لمثله الأعلى وسيده الذي سبقت رحمته غَضَبه، وغضبُه تبع لرحمته الشاملة والدائمة.

إن وحـدة المرجع كـوحـدة المنشأ، جديرة بأن تكون عاملاً من عوامل تعاضد و توافق ابناء المجتمع المسلم، والتفافه حول هذا المحور الذي تتهاوى عنده كل عوامل التفرقة والتنازع.

٢. العبادة المستمرة (والخضوع المطلق) للقانون الرباني في الحياة: (إياك نعبد).

إن رؤية الانسان للوجود والحياة تتجلى في سلوكه بلا ريب، والرؤية التوحيدية تستدعي التوجّه الدائم، والركون المطلق، والخضوع والانصياع المستمر لصـــاحب الولاية المطلقة، والقيمومة الشـــاملة والربوبية الدائمـــة، والرعاية المستمرة

للكون وللانسان بالذات.

إن انحصار الحق في مجمع صفات الكمال والجمال، يلزمه أن لا يكون لغيره من الثبات والدوام والحقانية إلاّ بمقدار تحققه وتمثيله وارتباطه بالحق الدائم الذي لا ولن يزول. قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾[سورة القصص: ٨٨]. وهذهِ الرؤية تستلزم نفي كل توجه أصيل لغير الله سبحانه، وقصر النظر على الله سبحانه وكل ما يمتُ إليه بصلة، ويكون وسيلة لبلوغ الغاية إليه.

إن وحدة المثل الاعلى هي المحور الثابت والاصيل والدائم، الذي يستحق أن تجتمع البشرية على اساسه وتتمحور عليه. وهذا يعني الانصياع للهيمنة الالهية في كل شؤون الحياة. وهذا الانقياد يستلزم رفض سائر أنواع الهيمنة على الانسان في حياته. فنظام الحكم في المجتمع الاسلامي، بل نظام الحياة هو نظام الولاية الالهية من جانب، وعبودية الانسان ـ فرداً ومجتمعاً ـ عبودية اختيارية بالنسبة لله سبحانه وتعالى من جانب آخر.

إن هذهِ العبودية الاختيارية بالنسبة لله سبحانه هي التي تضمنُ للانسان انسانيتهُ وتكامله وصعوده في سلَم الوجود. وكل عبودية سواها سوف تخرجه من انسانيته الى مهبط الحيوانية، والتردي به في هاوية الخسران، كما قال الله جل ذكره: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر].

إن هذهِ الصيغة العبادية ينبغي أن تطغى على المجتمع ولا تقتصر على الفرد، فتكون فاعليتها وشموليتها بحيث تغطي كل جوانب الحياة، وكل طبقات المجتمع وشرائحه.

ومن هنا نجد أن القرآن الكريم يؤكد على الطابع الاجتماعي للايمان فضلاً عن طابعه الفردي، فالطابع الاجتماعي أو الجمعي للعبادة يعني المجتمع العابد، بل المستمر في العبادة مع حمله لشعار عبادة الله وحده. وقد جاء الاسلام ليربي الانسان وليصوغ منه مثالاً للكمال البشري، ولا بد أن يكون منهجه منهجاً واقعياً يتماشى مع ضرورات الحياة وتطوراتها. ولهذا لا يمكن تجريد الفرد عن المجتمع لانه خلاف

الطبيعة البشرية والضرورات الحيوية.

إذن لا بد من تربية الانسان وصياغته وهو في مجتمع. فما هو المجتمع الذي يستطيع أن يحقق للانسان كماله اللائق به؟. إنه المجتمع العابد لله سبحانه، الكافر بعبادة غيره.

قال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾[سورة البقرة: ٢٥٦] فلا بد من رفض كل هيمنة غير إلهية، إذن كل هيمنة لا تمتُ الى الله بصلة حقيقية فإنها تكون هيمنة طاغوتية، تجر الانسان الى التردي والخسران.

إن تقبّل العبودية لله سبحانه وتمثيلها بالعبادة التي يقرها المعبود والتهيؤ لها والاستمرار عليها، والتصميم والعزم على انتهاج هذا المنهج الالهي في الهذه الحياة ضرورة ملحة، ولا يستطيع الانسان بدون هذا العزم الراسخ، وبدون الاستمرار في هذهِ العبادة أن يجني ثمارها حتى يضمن بلوغه مرحلة اليقين. قال تعالى: ﴿ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴾ [سورة الحجر: ٩٩].

ان المجتمع الاسلامي حين يرفع شعار العبادة لله وحده يعني انه يريد تحكيم الشريعة الالهية، والقانون الرباني على كل فصائل الحياة ومجالاتها في المجتمع البشري. وقد صرحت بذلك نصوص القرآن الكريم وجعلته هدفاً اساسياً يسعى اليه المجتمع الاسلامي. قال تعالى: ﴿ وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ ﴾[سورة البقرة: ١٩٣] و قال: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾[سورة التوبة: ٣٣]. وهذه الرؤية هي التي دعت أحد قادة جيش المسلمين للوقوف بوجه أحد القادة الجاهليين قائلاً له: «جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد الى عبادة الله سبحانه» ولكن الجاهليين ـ سواء تلبسوا بلباس الكفر أو النفاق أو الفسق ـ انما يشكلون جبهة واحدة. وقد تكون متلاحمة تستهدف انقاذ أوضاعها الآخذة بالتردي، وقد قال تعالى مخبراً عن هذهِ الحقيقة: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا ﴾[سورة البقرة: ٢١٧].

ومن هنا يشعر المجتمع العابد بالحاجة

الماسة الى القدرة الفائقة والدعم الالهي الكامل. لكن هذا الدعم لا بد أن تنطلق بذرته من المجتمع نفسه، بعد الشعور بالحاجة وبالفاقة، ليتحرك بإعداد العدة وتحصيل القدرة من مصدرها الاصيل.

٣. **الاستغناء بالله عن ما سواه والاستعانة التامة به والاعتزاز بها: (واياك نستعين).**

إن الجهل لا يرتفع إلاّ بالعلم، والعجز لا يندفع إلاّ بالقدرة، والعلم سلاح تحصيل القدرة. وكما يحتاج الفرد الى العون، فالمجتمع كذلك أحوج ما يكون الى العون، ولا بد من توجه الجميع نحو هذا المحور، ولا بد من الايمان بهذا المحور الذي ينبغي أن يكون قادراً على إفاضة القدرة والعزة والغنى، ليستغني العاجز به عن من سواه، ويحتفظ بروح التوحيد ويبتعد بذلك عن كل الوان التمزق والاضطراب.

إن الايمان بهذا المصدر المحيط بكل شيء، والعزيز الذي لا يعجز لجديرٌ بأن يعطي للمجتمع المؤمن والفرد المؤمن حالة الاعتزاز بمصدر العزة، فالضعيف لا بد أن يعتز بشيء يجبر ضعفه.

إن الاقرار بالحاجة الى العون، والاقرار بأننا محتاجون الى العون الالهي، وأن هذا العون يتقدمه طلب العباد بشكل أكيد من مصدر القدرة، وهو الله سبحانه، وأن هذهِ الاستعانة إنما هي على طول الخط ولا تختص بحقبة زمنية خاصة، كل هذا قد لخصه لنا القرآن الكريم في جملة واحدة فقط هي: (واياك نستعين) بصيغة الجمع مع الحصر والفعل المضارع المفيد للاستمرار.

إن تكرار هذهِ الجملة وتلقين الانسان بأنه رغم كونه في جمع، والجمع علامة القدرة والقوة عادة، فإن هذهِ القدرة لا تغني عن قدرة الله سبحانه، بل الجمع كله بما يملك من طاقات بحاجة دائمة ومستمرة للتوجه وطلب العون منه سبحانه، فإن هذا الاقرار هو رمز الانشداد الدائم، وهو الكفيل بأن لا يغتر الانسان بقدرته الفردية أو الاجتماعية. بل لا يغتر المجتمع مهما حصل على طاقات وقدرات بل يقول معتقدا: «إلهي أنا الفقير في غناي، فكيف لا أكون فقيراً في فقري؟. إلهي أنا

الجاهل في علمي، فكيف لا أكون جهولاً في جهلي؟. إلهي إن اختلاف تدبيرك، وسرعة طواء مقاديرك، منعا عبادك العارفين بك عن السكون الى عطاء، واليأس منك في بلاء»[٣].

إنه منتهى المعرفة وقمة الكمال العرفاني هو الشعور بالعجز الواقعي عند القدرة، وبالجهل الذاتي عند العلم، وبالرعاية الالهية في أشد الظروف قساوة وأحرج اللحظات.

إن الاستعانة بالله وحده تعني الاستقلال التام في كل الجوانب التي تحكم حياة الفرد والمجتمع، وهذا نتيجة طبيعية للاستعانة التامة بمصدر القوة، وحصر العون بالرعاية والتسديد الالهي، لذلك فإن المجتمع إذا تمتع بهذهِ الرؤية العميقة، فإنه سوف يصمد امام أي اختراق ثقافي أو سياسي أو عسكري أو اقتصادي، من أي قوة لا تبتني على اصول الرؤية التوحيدية الخالصة. ففي المجتمع المسلم تجد تجسيداً حقيقياً لقوله تعالى: (وإياك نستعين).

إذن فحصر التوجه بالتوجه إلى الله، وحصر الاستعانة بالاستعانة بالله تعالى ركنان اساسيان لا يستغني المجتمع المسلم عن أحدهما بتاتاً.

٤. التوجيه السليم للعاطفة نحو(الحياة الهادفة): (اهدنا الصراط المستقيم).

الانسان عاجز بطبيعته، فهو بحاجة الى القدرة ولا بد أن يستعين بذي القدرة، وأحسن من يستعان به وأولى من يكون قادراً على الاعانة، هو مصدر كل انواع القدرة وينبوعها الذي لا يفنى، وهو الله سبحانه الحي القيوم الذي لا تأخذه سنة ولا نوم.

والانسان جاهل بطبيعته فهو بحاجة الى العلم، بل بحاجة الى الهداية والارشاد، إذ رُب عالم قد قتله جهله، ورُب علم لا ينفع، فالذي يحتاجه الانسان بحق إنما هو الهدى، ولذا قال الرب تعالى لمربوبيه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٨].

إذن فحاجة الانسان الفرد بل حاجة المجتمع البشري إنما هي الى الهداية التي

(٣) من دعاء الامام الحسين عليه السلام في عرفات (مفاتيح الجنان).

هي فوق العلم، وكم من المجتمعات التي ينتشر فيها العلم وتنتشر معه الغواية والتردي والضلال والطغيان والدمار؟.

إن أهم حاجة للانسان في هذهِ الحياة هي حاجته الى الهداية، والهداية إنما هي بمعرفة الهدف، للوصول الى المطلوب. واذا عرف الهدف فقد لا يؤمن به الانسان، واذا آمن به فقد لا يدرك الطريق اليه، واذا أدرك الطريق اليه فقد لا يؤمن به، واذا أدرك وجوده فقد لا يعرف تفاصيل الامور وقد لا يعرف العقبات والافات، وقد يخطو الانسان نحو الهدف عدة خطوات ثم يستشعر من خلالها الضعف والانهيار.

ولهذا كله فهو يحتاج الى الهداية نحو النور، والى الصراط المستقيم الذي هو اقرب الطرق للوفود على الله سبحانه-وهو الكمال المطلق الذي ينشده كل مخلوق- وهي الهداية المستمرة والتسديد المتتابع، تسديداً يُبقي مشعل الايمان بالهدف وبالطريق متوهجاً، ويدفع كل وحشة تنال الانسان إذا شعر بوعورة الطريق.

وطريق الهدى يمتاز بقلة أهله، فينبغي للمؤمن أن لا يستوحش فيه، ولهذا فهو أحوج ما يكون الى طلب الهداية من الله مباشرة، وهي الهداية المستمرة الى الصراط المستقيم والثبات على هذا الصراط الحق الذي لا معدل للانسانية عنه.

وهذا الطلب لا يكون فردياً فحسب، بل لابد أن يشكل ظاهرة اجتماعية، ولا يكون كذلك إلا اذا شعر عامة أفراد المجتمع بالحاجة الماسة لذلك والتعاون عليه.

إنّ الطلب الدائم من المجتمع العابد لله-و هو طلب التسديد الالهي-عن طريق هدايته لصراطهِ المستقيم، والدعاء طلب وتوجه، أو شعور وابراز لذلك الشعور في عاطفة جياشة، واقرار بالعجز والجهل والحاجة والفقرالى الغني المطلق إقراراً يقترن بالعظمة التي تهيمن على الداعي لتوجهه نحو مصدر الخير والهدى والقدرة، فيكون هذا توجيهاً للحب في مسار لا ينفد ولا ينضب، كما قال تعالى: ﴿ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبّٗا لِّلَّهِ ﴾[سورة البقرة: ١٦٥] فحب المؤمن لله أثبت وأعظم من أي حب ولأيِ محبوب.

٥. **القدوة الصالحة للمجتمع الصالح: (صراط الذين انعمت عليهم).**

للانسان -في هذهِ الحياة -حاجات كثيرة، والحاجات متنوعة وليست كلها في درجة واحدة من الاهمية والضرورة. فبعضها كمالية وبعضها اساسية.

والحاجات الاساسية بعضها أهم من بعض، حتى إن بعضها لا يمكن التغافل عنه لحظة واحدة.

وحاجات الجسم ليست بأهم من حاجات الروح، ما دامت الروح هي محور السعادة والشقاء. وأهم حاجات الروح هي السلامة من الانحراف والاهتداء الى الصراط المستقيم، لتتزن الروح وتتعالى على جذبات الجهل والهوى وثقل الطين وظلمات المادة. فتتنوع النعم الالهية من حيث اهميتها لهذا الانسان، ومدخليتها في ايصاله الى الغرض المنشود من حياته على هذهِ الارض.

وأهم النعم وأجدرها بالاهتمام -التي لا يمكن استبدالها بغيرها -هي نعمة الهداية الى الصراط المستقيم، بل هي النعمة الوحيدة التي ينبغي للانسان -في حياته هذه -أن يسعى اليها تحصيلاً وطلباً.

وهذا ما يوحيه لنا ذكرها في هذهِ السورة دون غيرها من الحاجات والطلبات، ليعلم الانسان اهميتها وعدم وجود بديل لها، بل هي التي تجمع للانسان خير الاخرة والدنيا، كما أشار الى هذهِ الحقيقة قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾[سورة الاعراف: ٩٦].

ولكن هذهِ الهداية لا تحصل للانسان إلاّ أن يكون مستعداً لها، وذلك حين يطلبها من مصدرها، ويكون جاداً في طلبها ولا يتوانى لحظة عن إرادتها، فيكون دائم الطلب لها، فيقول بكل وجوده وفي كل لحظة قائلا: (اهدنا الصراط المستقيم)، ويسعى بجد لتحصيلها بتوفير ما تستلزمه هذهِ الحاجة المهمة.

وقد عبر عن ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [سورة العنكبوت : ٦٩]. ولكن التربية انما تتوفر مقوماتها إذا اقترنت النظرية بالتطبيق، والعلم بالعمل، والمفاهيم

والقيم بالقدوة المجسدة لهذه المفاهيم وتلك القيم.

إن القرآن الكريم يؤكد هذهِ الحقيقة اللازمة لتربية الفرد والمجتمع، وقد أولاها أهمية كبرى حيث قال: ﴿ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى ﴾[سورة البقرة: ٣٨].

كما قال ايضاً: ﴿ وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ ﴾ [سورة الاعراف: ١٨١].

وقال ايضاً: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾ [سورة التوبة: ٣٣].

وقد اعتبر الرسل مهديين قبل أن يكونوا هداة، فقال عز من قائل: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [سورة الانعام: ٩٠]، وجعل الرسل أُسوة لعباده الذين يريدون الوصول الى نعمة الكمال الانساني اللائق، فقال تعالى: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾[سورة الممتحنة: ٤].

وقد اعتبر القرآن الكريم نعمة الهداية اهم النعم الالهية، بل اعتبر النعمة الحقيقية هي نعمة الهداية فقال: ﴿ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾[سورة النساء: ٦٩].

اذن الصراط المستقيم هو الصراط الذي تجسد في سلوك الانبياء والصديقين والشهداء والصالحين، ودلالة القدوة الصالحة والأُسوة الحسنة على الطريق دلالة حسية عملية، وهي أوقع في النفس وأدلّ على المقصود وأهدى من حيث الوصول الى المطلوب.

ولم يخل مجتمع بشري من الهداة المهديين، اذ قال تعالى: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴾ [سورة الرعد: ٧].

وقال: ﴿ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ﴾[سورة يونس: ٣٥].

فالهداة هم الذين اهتدوا بادئ ذي بدء وازدادوا هدىً، فهم قد سلكوا طريق الحق والصراط الالهي المستقيم، وهو صراط العبودية التامة لله سبحانه.

وهكذا تتضح معالم النظرية الاسلامية القرآنية للحياة، وتنسجم النظرية مع التطبيق، وتؤدي القدوة الصالحة دورها

الاساسي لبناء المجتمع الصالح، وتتحقق الاهـداف المثلى للحياة الانسانية على وجه الارض، ويتحقق الجـواب الالهي للملائكة حين قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ فقـال: ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

٦. معرفة الآفـات والابتعادعن الزيغ: (غير المغضوب عليهم ولا الضّالين).

من هم المغضوب عليهم؟.

ومن هم الضالون؟.

ولماذا يجب تمييزهم؟.

بل لماذا تجب معرفتهم؟.

مما لا شك فيه أن الانسـان إمـا أن يتعرف على الـصراط المستقيم فيسلكهُ ويسير عليه، وإمـا أن يتعرف عليه ولا يسلكه، وإمـا أن لا يتعرف عليه بتاتاً، فـالاول هو المهتدي والثاني هو الفاسق الذي يجحد الحق بفسقه، والحجة عليه آكد وأشد، لعرفانه وعلمه الذي ينجّز عليه التكليف ويتم عليه الحجة، فتركه للحق مع علمه به يجعله مستحقاً للغضب عليه، فهو أبعد عن الحق لوجود حاجز نفسي بينه وبين الحق الذي عرفه.

والثالث هو الضال الذي لم يتعرف على الحق ويكون مقصراً في التعرف عليه. وانـحـراف كـلا الفريقين عـن الـصراط المستقيم أمر بيّن.

وينبغي تمييز خطي الحـق والباطل والهدى والضلال تمييزاً كاملاً، لئلا يلتبس الحـق بالباطل ويخـوض الانـسـان غمار الباطل متصوراً أنه الحق.

وكـما تؤثر الـقـدوة الصالحة في بناء المجتمع الصالح، تؤثر القدوة الفاسدة كذلك تأثيرها السريع في إيجاد المجتمع الفاسد والمنحرف.

وكما ينبغي معرفة الحق وأهـل الحق يجب معرفة الباطل وأهل الباطل كذلك، للحذر منهم ومن مكائدهم وخططهم الشيطانية والتبرؤ منهم على كل حال.

وهكذا تتضح الآفات التي تسيطرعلى أصـحـاب الهـدى وطـلابـه وتـدعـوهـم لمعرفتها وتمييزها والسعي للاجتناب منها والابتعاد عنها.

وآخر دعوانا أن الحمدلله رب العالمين